

صورة الآخر في الشعر الثوري لدى مفدي زكرياء

Image of Other In The Revolutionary Poem Of Moufdi Zakarya

تاريخ القبول: 2018-06-19

تاريخ الإرسال: 2018-05-17

الدكتور: الحاج جفدم

جامعة حسيبة بن بوعلي/ الشلف (الجزائر)

الملخص :

إنّ عظمة ثورة التحرير الكبرى (1954 - 1962) تعود إلى عظمة أبطالها الصناديد، ورجالاتها العظام الذين أشعلوها ناراً على الآخر، فكانت أعظم ثورة عرفها العالم خلال القرن العشرين، حتى أضحت نموذجاً لحركات التحرر في العالم المعاصر، ما دفع بالمؤرخين لاعتبارها ثورة إنسانية، لأنها تعدت حدود الجزائر لتصبح مكسباً للحضارة الإنسانية.

في ضوء ذلك، يتأسس انشغالنا في هذا المجال على إبراز صورة الآخر كما صوّرها الشاعر مفدي زكرياء، مبرزين أشكالها في الخطاب الشعري الذي يحمل دلالات فضح الآخر على حقيقته، متوقفين عند الصورة الاجتماعية، والأخلاقية فالصورة الحيوانية.

Abstract

The greatness of the Great Liberation Revolution (1954-1962) is due to the greatness of its great heroes, the great men who set fire to each other. It was the greatest revolution the world had ever known during the 20th century. It became the model of liberation movements in the modern world. for this reason, the historians consider it as a humanitarian revolution, because it exceeded the borders of Algeria to become a gain for human civilization

Therefore, our concern in this area is based on displaying the image of the other as portrayed by the poet Mofdi Zakaria, highlighting its forms in the poetic discourse that bears the connotations of exposing the other to its reality, stopping in the image of the occupied country "France", the image of the politician who engineered the occupation plan, Let us arrive at the social image and the animal's one .

Keywords : Revolution, the Other, the Speech, Image .

أولاً: صورة "الأنا" و "الآخر" في المقاومة الجزائرية.

يرى الكثير من الدارسين أن الموقع المتميز الذي تحتله الجزائر بين أشقائها وجيرانها، فرض على الذات الجزائرية علاقات خاصة جداً ومعقدة كثيراً، حيث تلخصت في مدّ وجزر بين "الأنا" الذات الوطنية، و "الآخر" الذات الأجنبية، لكن تلك العلاقة كانت معقدة ومؤثرة في كثير من الأحيان، لأنها لم تكن مبنية على أسس إنسانية طبيعية تملئها ظروف الجوار، أو مبادئ التجارة، بل كانت مؤسسة على عنصر الاستقلال والاستحواذ والهيمنة، وذلك ما زرع داخل الذات الجزائرية بذور الخوف¹.

وعلى هذا الأساس، فإنّ ثنائية (الأنا، الآخر) بوصفها مقولة « شاعت لدى الفلاسفة منذ اليونان مروراً بالفلسفة العربية الإسلامية ووصولاً إلى الفكر المعاصر، ومازالت إلى الآن ظاهرة تستحق التأمل والدّرس، ولو أنّ الرؤية الغالبة إستمرت تحصر صورة الآخر في الأجنبي المستعمر أو في الغرب المتفوق الذي يظهر في المحصلة على أنّه الاستعمار القديم في ثوب جديد. فهي صورة تحمل نقوشاً من خلفية تاريخية لا وجه فيها للجمال بقدر ما تثير الكراهية والنفور وتدعو إلى الحذر من الآخر، الغريب»².

إنّ الذات الوطنيّة التي إرتسمت معالمها في الأفق بعد ثورة الفاتح من نوفمبر، إنّما جاءت نتيجة تلاحم "الأنا" مع الإرادة الشعبيّة التي كسّرت قيود الجمود والتقاعس، ولقد أفرز هذا التزاوج أنواعاً من المقاومة، منها العسكريّة³، ومنها الفني بشقّي أجناسه⁴.

وعليه، فإنّ ما يهمنا في هذا المجال، الجانب الفني "المقاومة بالكلمة، إذ كان شعر المقاومة الوطنيّة عند مفدي زكرياء خلال مرحلة الثورة، يترصد الصراع والمواجهة بين "الأنا" المغيب في وطنه الذي يتجلى في الإنسان والمكان والحيوان، مقابل "الآخر" الذي ينعم في أرض ليست أرضه، ويتمظهر في صورة البلد المحتل، والسياسي المخادع، وصورة الجندي، أنّها الملامح البارزة لدى الطرفين المتصارعين، كما تراءت أمام عيني الشاعر، ونقلها إلينا بأدواته الفنيّة.

ثانياً: صورة الآخر/ المحتل (الفرنسي)

يبدو أن صورة "المحتل الفرنسي" في شعر مفدي زكرياء الثوري، قد اتسمت بصفات لا يقدم على اقتراها إلا الماكرون الذين في قلوبهم البغضاء والحقد لشعب كان ضحية مؤامرة بطلها الرجل المريض "الدولة العثمانية"، وقد تجلت في الصورة الاجتماعيّة والأخلاقيّة⁵.

1- الصورة الاجتماعيّة:

لو نظرنا إلى أخلاق "الآخر"، لوجدناها تنبئ عن تاريخه واعتقاداته وفنونه وعلومه، وفي علاقته مع شعوب المعمورة، ما جعل هذا الأساس الأخلاقي الذي قام عليه صرح المدينة الغربيّة، يرقى بالإنسانية إلى مصاف التحضر والسّموم⁶.

بيد أنّ الأمة التي تنحرف عن مسار أخلاقها الذي قامت بفضلها، لا شك أنّها ستتحرف عن طريق الإنسانية، ويتجلى ذلك في علاقتها مع "الأنا" الذي ظلّ عرضة للخداع والإهانة، إذ سنحاول في هذه العجالة أن نقف عند الجانبين الاجتماعي والأخلاقي من خلال شعر مفدي زكرياء الوطني الثوري.

*صورة الكذب والخيانة:

قد يكون تفكير فرنسا في البقاء على أرض الجزائر والحفاظ على تواجدتها للأبد من الأسباب التي دفعت بها إلى اقرار جملة من الرذائل، ولعلّ أخطرهما على الشعب الجزائري، صفة الكذب التي يتفرغ عنها صورة الخداع والخيانة والتدنيس والوعد الكاذبة والعبث.

ونحن نعتقد أنّ الشاعر حينما يقف عند صورة "الآخر" المحتل، فإنّه يقوم بتقريب الواقع المأساوي وفق عناصر يراها مناسبة في فضحه وتعريته على حقيقته، "والكاتب في تقديمه لصورة الأجنبي لا ينسخ الواقع، بل يختار عدداً من السمات والعناصر التي يعدّها مناسبة لتقديم الأجنبي"⁷.

*الخداع والوعود الكاذبة:

لقد تفتن الشاعر مفدي زكريا، لسياسة الخداع والوعود الكاذبة التي تعتبر لوناً من ألوان الكذب، داعياً فرنسا إلى الكفّ عن هذا الأسلوب الحقيّر في التعامل مع القضية الوطنية، "فالوعود التي كانت تعدّها فرنسا للشعب الجزائري مرة بتسوية الأوضاع، ومرة بعضوية البرلمان والنيابات والقيادات، وأخرى بالمشاريع التنموية"⁸، يقول مفدي زكريا:⁹

يا فرّنسا كفى خداعاً فإنّا

يا فرّنسا، لقد مللنا الوعوداً

سكت الناطقون وانطلق الرّشاش

يُلقى إليك قولاً مفيداً

يواصل مفدي زكرياء الحديث، ليكشف للمتلقّي، أنّ لغة البيان التي أفصحت عن وجود فرنسا وادعاءاتها ووعودها، فالبرغم أن الثورة قامت إلاّ أنّها كانت تمارى باستمرار والشاعر يتوعدها بل ويؤكد على أنّ الجزائر ستحرر حتماً¹⁰.

ويتدرج الشاعر في معرض حديثه عن رذيلة الكذب- التي ميزت الغزاة- ليرد عليهم بعد زعمهم أن الأجانب سيضطهدون في الجزائر، وإذاعة الأكاذيب كي يبرروا بقاءهم، وهي مغالطة سياسية، يقول مفدي¹¹:

وقالوا: في الجزائر سوف يلقى

هم كذبوا، ومالم دليل

أجانبها - إذا انتصرت - تباباً

وكان حديثهم، أبداً كذباً

في ظل تمادي المستعمر في سياسة الخداع، سعيّاً منه لإطالة الأزمة، وقف الشعر لينبه على أنّ الشعب الجزائري هيهات أن يُخدع في استقلاله الهادف "إلى التحرّر من الاستعمار الفرنسي، وتكوين الدولة الجزائرية المستقلة، ورفض الاندماج في الهوية الفرنسية، واسترداد الهوية الوطنية"¹².

يقول مفدي زكرياء:¹³

خبّر فرنسا، يا زمان بأنّنا

واستفت يا ديغول، شعبك، إنّه

هيهات في استقلالنا، أن نخدعاً

حكم الزّمان، فما عسى أن تصنعا

وما يؤكّد مذهبنا هذا، موقف المقاومين، ورجال السياسة تجاه وعود فرنسا، ويتجلى ذلك في وصية رئيس حزب الشعب ميصالي الحاج لفرحات عباس، "فإذا كنت قد منحتك ثقتي لتحقيق جمهورية جزائرية مشتركة مع فرنسا فإنني مقابل ذلك لا أثق بفرنسا أبداً... إنّ فرنسا لن تعطيك شيئاً وهي لا تخضع إلاّ للقوة ولا تعطي إلاّ ما تستطيع انتزاعه منها"¹⁴.

*التدنيس والإهانة:

التدنيس والإهانة صفتان عُرفَ بهما الفرنسيون إبان احتلالهم للجزائر، ويتجلى ذلك في إقبال جنود المستعمر، وبعض الاعتداء على شرف البنات، وتدنيس أعراضهن بالقوة وخذ السيف، يقول مفدي زكرياء:¹⁵

سنثار للبنت التي ديس قُدسها
ودنس أحلام الخنا، عرضها الأنقى

والأسوأ من ذلك، نجد جنود المستعمر يتفنون في صنع أطوار الإهانة ضد الجزائريين الذين ضُربوا في شرفهم، حيث يقبل هؤلاء الجنود على ربط رب العائلة، ويُهتِك عرض زوجته وبناته على مرأى ومسمع منه، دون أن يرد شيئاً عن ذلك، ولا ينطق بكلمة وللشيخ توتي زوجته وهو موثق

يراهما فما يستطيع دفعاً ولا نطقاً

*النكوت بالعهود والغدر:

يبدو أنّ شعر المقاومة الوطنية يقف عند صفتي النكوت بالعهود والغدر، وهما لونان من ألوان الخيانة التي ميّزت المستعمر الذي أغرقته الأحلام -للظفر بالجزائر إلى الأبد- في متاهات الكذب والانسحاق وراء اقتراف صفات ذميمة.

ولعل الخطاب الشعري الذي توجه به مفدي زكرياء إلى فرنسا، يشير إلى أنّ السياسيين نكث العهود التي قطعوها على أنفسهم، لتصبح عند الجزائريين بمثابة الحكم الذي يراودهم عند اليقظة والمنام، يقول مفدي زكرياء:¹⁶

فكم قطعت عهوداً، أصبحت حلماً
حتى غدونا، بغير الحرب لا نتق

ثم يعود الشاعر لبيان صورة الغدر عند الفرنسيين، بعد أن عاشوا في الأرض فساداً بسبب زرع سياسة الجهل والتخلف في الأوساط الشعبية، إنّنا أمام خطاب يفصح عن استمرار حال الظلم الذي شاع عند المستعمر، والغدر الذي أصبح سائداً تحركه يد المحتل يقول مفدي زكرياء:¹⁷

فالظلم ما زال على حاله
والغدر في هذا الوري سائد

2- الصورة الأخلاقية:

ما من متصفح لتاريخ الاحتلال الفرنسي في الجزائر، يكتشف أنّ ليس ثمة ما يفتخر به الفرنسيون، فتاريخهم مظلم حافل بالأخلاق الدينية التي تعكس الأعمال الوحشية المقترفة في حق الشعب الذي قال: لا للظلم ولا للاغتصاب، نعم للحرية والاستقلال، لذا يحمل الخطاب الشعري عند مفدي زكرياء الرذيلة، كقيمة سلبية عرف بها الفرنسي، ويصنّفها وفق هذه العناصر:

*ارتكاب الشناعات والإجرام:

حالة متردية تلك التي ينهض عليها الخطاب الشعري في القصيدة الموسومة بـ "وليد القنبلة الذرية، وفيها بلغت فرنسا درجة منحطة من الأخلاق، فالقتل والتعذيب والتنكيل للكبار، والآلام للصغار، والكريم يعاني في ظل ذلك الإهانة، يقول مفدي زكرياء:¹⁸

ما دهاه...؟ ويل أمه... ما دهاه؟؟
 ويلتاه، من جيله ويلتاه
 ما في الحياة يولد أعمى
 لم ترى الكون، باسماً مقلتاه
 ما له أحرسا، تناجيه في المهـ
 د، ولم تبتسم لها، شفتاه؟

ييث الشاعر مفدي زكرياء في هذا الخطاب شكواه وأبينه، فالحالة متردية لأنّ الفضيلة معدومة، والإنسان متألم، والشناعات سائدة.

ولو أن ذلك الحدث "لم ينل من اهتمام الشاعر كثيراً ما تعرض له الكبار من جراء إشاعات تلك القبلة... لكن الذي حرّك عاطفة الشاعر في حدث تفجير القبلة، وأثار نائرتيه هو مصير ذلك الجنين الذي لا يزال في أحشاء أمه"¹⁹.

لقد استعان الشاعر للتعبير عن هذا الإجرام بعنصر التصوير الفني الذي أعطى الصّدارة لصورة الإنسان المفجوع، ما أفقده الشاعر وعيه وصوابه، فلم يجد القدرة على مواجهة ما ألمّ بالإنسان الجزائري سوى تلك الأسئلة الحائرة.

ومن عجيب الأمر أن الاستعمار الذي ادعى الحضارة ونبيل الأخلاق، وسمو الفضيلة، ارتكب من الشناعات والإجرام في حق الأبرياء ما لم يصدقه عقل ولا يقبله منطق، بحيث: "عاث في الأرض فساداً وجلب على الشعب الجزائري بالتذبيح والتقتيل، وصبّ عليه أسوأ من العذاب والنكال حتى فقد كرامته، وضيّع عليه إنسانيته، فأمسى مجرد شعب مستعبد يعيش تحت قيود الذل"²⁰.

وفي هذا الصدد يقول بآ عزيز بن عمر: "إنّ عهود الاستعمار كلها أيام ظلم وإرهاب واعتداء على الحريات والحرمات، وأيامه كلها أيام سود في تاريخ البشرية، وصحائف تاريخية كلها تمجيد للطغيان، وسفك للدماء، وقتل للمواهب وخنق للحريات، وتمكين الاستناد وإبادة للشعوب والأمم"²¹.

ونجد الشاعر مفدي زكرياء، يقدم عبر هذا النص صورة سلبية عن المستدمر، تتجلى فيه فظاعة القمع، ووحشية الإبادة، في ظل إرتكاب الأفعال الشنيعة، حيث كان الجندي الفرنسي المتوحش، يضع المسدس في فم الأطفال، ويفرغه في أحشائهم، ويهتك عرض الأزواج والبنات أمام أنظار أزواجهن الذين يربطون إلى جذع شجرة، يقول مفدي زكرياء:²²

لا والمراضيع عوضت أنداؤها
 بقم المسدس والرصاص فظام
 والأم يهتك عرضها وفحولها
 حول الفضيحة شاخصون قيام
 *الحقد والبغضاء:

ويتكرر أسلوب مفدي زكرياء في الكشف عن الصور الدنيئة، ليقف -هذه المرة- عند صورة الحقد التي تميز بها الفرنسيون، ليقطعوا بها كل وئام مع الشعب الجزائري، فالشاعر يتمنى أن يصعق المستعمر الحاقد الذي جلب على الأمة البلاء، وزرع البغضاء. يقول مفدي زكرياء:²³

وابعث بها نحو البقاء، طاقة
ويقول أيضا: ²⁴
زرعتم الحقد في الدنيا، فدناكم
هذا الزمان، كم كنتم تدينونا
يصعق بها المستعمر الحاقد

3- الصورة الحيوانية:

يبدو أن الصورة الحيوانية من الصور الطريفة التي وقف عندها الشاعر مفدي زكرياء، ليعكس تصرفات الفرنسيين التي تستمد أصولها من واقع، يحملنا إلى العالم الحيواني، وبالضبط إلى وصف المستعمر بالذئاب التي تتميز بسمي الغدر والخيانة، ونعتهم بأنهم وحوش هو أقرب إلى صورة الإجرام والتخريب، وتسميتهم غرابياً، تأكيداً على إنحطاط أخلاقهم بالإقبال على تحين الفرص، قصد ارتكاب الشناعات.

لو جئنا نتابع الخطاب الشعري عند مفدي زكرياء، لبيان "صورة فرنسا"، واستظهار سلوكاتها، لوجدنا صفة الذئب ماثلة وملازمة للفرنسي، حتى غدت رمزاً له، لأنّ الذئب يتميز عن غيره من الحيوانات الأخرى بالغدر والوحشية، وهما صفتان موجّهتان للمستعمر. يقول مفدي زكرياء في القصيدة الموسومة بـ "ذروا الأحلام" ²⁵.

ولا تجدي السياسة مع لصوص تسترّ بالدحي تحشى النهار يقف الشاعر هنا، ليؤكد على أنّ الاستعمار الفرنسي لا تجدي معه السياسة، فهو يتصرف تصرف الذئاب في خداعها ومكائدها وغدرها، لذا يجب إستعمال القوة معه، ولم يزل مفدي، يسترسل في نعت الفرنسيين بالذئاب التي تتسم بأسلوب المباحثة في صيد الفريسة. يقول مفدي زكرياء: ²⁶

من الجزائر ذئب الغرب باغتتنا
وفي الجزائر عهد الذل يحتتم

لا يتوانى الشاعر مفدي زكرياء، في قصيدته الموسومة بـ "وتعطلت لغة الكلام"، أن يطلق صفة الوحشية على المستعمر الذي سلط على الشعب حرب إبادة حقيقية، حيث لا يختلف في سياقها عن الدمار والخراب، والموت الذي تحلّفه الوحوش حين غضبها، يقول مفدي زكرياء:

يا للفظاعة من وحوش جوع
تسمو على أخلاقها الأنعام

¹- ينظر: محمد بشير بويجيرة، تجليات الأنا والغبن في الخطاب الشعري، أعمال المهرجان الوطني الثاني للشعر الشعبي، الأغواط، نوفمبر 1999، ص 41.

²- مخلوف عامر: الأنا والآخر- انفتاح وانغلاق نموذجان: "علي الحمامي" و "مالك بن نبي" - مجلة الموروث، جامعة مستغانم، ع2، ماي 2013، ص 103.

³- ينظر: يحي بوعزيز، كفاح الجزائر من خلال الوثائق، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 45.

⁴- ينظر: محمد بويجيرة بشير، تجليات الأنا والغبن، ص 43.

⁵- ينظر: محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، (د- ط)، (د- ت)، ص 259.

- 6- ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، (د-ت)، ص 89.
- 7- أحمد سيف الدين: صورة الأوروبي، في مجلة جامعة دمشق، ع1، 2002، ص 48.
- 8- ابن قويدر مختار: التناس في شعر مفدي زكرياء، رسالة الماجستير مخطوطة، جامعة وهران، 2001، ص 212.
- 9- مفدي زكرياء: اللهب المقدس، موفم للنشر والتوزيع، ط3، الجزائر، 2000، ص 17.
- 10- عبد الله ركيبي: الشعر في زمن الحرية، دراسات أدبية ونقدية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 75.
- 11- مفدي زكرياء: م- س، ص 38.
- 12- عبد الله ركيبي: م- س، ص 75.
- 13- مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 67.
- 14- حواس بري: شعر مفدي زكرياء، دراسة وتقويم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 83.
- 15- مفدي زكرياء: م- س، ص 200.
- 16- مفدي زكرياء: م- س، ص 28.
- 17- م- س، ص 147.
- 18- مفدي زكرياء: م- س، ص 161.
- 19- يحيى الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكرياء - دراسة فنية تحليلية - ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1987، ص 157.
- 20- عبد الملك مرتاض: أدب المقاومة، ج1، دار هومة، الجزائر، 2003، ص 189.
- 21- عبد الملك مرتاض: م- م- س، ص 188.
- 22- مفدي زكرياء: م- س ص 45- 46.
- 23- م- س، ص 146.
- 24- م- س، ص 151.
- 25- مفدي زكرياء: م- س، ص 152.
- 2- م- س، ص 152.